حوليات آداب عين شمس المجلد 50 (عدد يوليو – سبتمبر 2022)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

التنوير الفرنسي: الإنسان العقلاني
فولتير أنموذجا

أحمد جعيب كاظم*
حسين عبد الزهرة الشيخ**

جامعة بغداد – كلية الاداب
ahmed-al-rubaiy@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2019/4/23
تاريخ التحكيم: 2019/4/23
تاريخ قبول البحث: 2019/5/20
تاريخ النشر: 2022/9/30

المستخلص:

لقد ركزت الفلسفة الفرنسية على الجانب العقلي من الإنسان واعطته قيمة عليا وكادت تؤلهه، ويعتبر فولتير هو فيلسوف التنوير العقلاني الفرنسي بلا منازع، ويرى فولتير أن الإنسان لا يعرف شيئا عن هذا العالم إلا عن طريق التجربة، وأن الإنسان لن يجد أجوبة عن أسئلته الميتافيزيقية عند الفلاسفة الميتافيزيقيين ولا عند رجال الدين بل يجدها في العمل والفكر العقلاني، وفي الجانب الاجتماعي يرى فولتير أن الفطرة الإنسانية مجبولة على الاجتماع؛ لذلك يرفض رأي روسو في إنسان الطبيعة، وقد حاول فولتير رد الاعتبار للإنسان الحسي والشهواني، وأكد ضرورة توفير حاجاته وملذاته، محتجا على أخلاق الكنيسة التي تسعى الى التقليل من قيمة الجسد على اعتباره أصل الغواية والخطيئة، فالإنسان خُلق ليتسلى حسب فولتير، أما فيما يخص الحقوق الطبيعية للإنسان فتتمثل بحق الحرية، حرية الفكر والمعتقد والتصرف، وحق الملكية الخاصة، وأن هذه الحقوق يجب أن تكون مصانة بقوانين واضحة لا لبس فيها، وركز فولتير على مسألة التسامح الديني ويرى أن التسامح لا يأتي من الدين ولا من خلال فرض قوانين صارمة، وإنما الحل الأمثل للتخلص منه هو نشر الفكر الفلسفي العقلاني بين الناس، ليصلوا الى قناعة، أن لا يمكن أن يتفق جميع الناس على دين أو مذهب واحد لذلك عليهم الإقرار بالاختلاف، وفولتير هاجم الأديان واعتبرها سببا في تعاسة الإنسان، إلا أنه لم يكن ملحدا فكان يؤمن بوجود الله وقد قدم أدلة على وجوده، وإذا كان روسو تحدث عن دين الفطرة فأن فولتير تحدث عن الدين الطبيعي، ومع ذلك لم يلصق الإلحاد بفيلسوف مثلما ألصق بفولتير، لقد كان لفولتير وديدرو وروسو وغيرهم من فلاسفة التنوير الفرنسي دورا بارزا ومؤثرا في قيام الثورة الفرنسية.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2022.

الانسان العقلاني

تُعبر (الموسوعة) خير تعبير عن التنوير الفرنسي، فكما يرى ديدرو (1713 – 1784) وهو المحرر الرئيسي لها، إن رسالتها ـــــــ اي الموسوعة ـــــــــ هي جمع كل المعرفة، ونقلها الى الناس في هذا العصر وفي العصور القادمة، لجعلهم ليسوا أكثر حكمة فقط بل وفضلاء وسعداء، وهنا يضع ديدرو الخطوط العريضة للتنوير الفرنسي، فالإنسان الفاضل والسعيد، هو الإنسان العارف، والمعرفة ربطها التنوير الفرنسي بالعقل وحده، فقد كان العقل والعقل الذي يرفض أن يقيده أي شيء خاصة نواهي الدين هو الذي يتصدر قائمة التنوير الفرنسي، لذلك كان هدف فلاسفة التنوير الفرنسي هو تحويل السلطة السياسية من اللاهوت أو التراث إلى الناس، هذه الفكرة التنويرية، التي تبناها معظم الفلاسفة الفرنسيون، دافعت عن حق الناس في الموافقة على حكومتهم في شكل من أشكال العقد الاجتماعي. ويُعد فولتير (1694 – 1778) من أعظم فلاسفة التنوير، حارب الجهل والطغيان ودافع عن الحقوق المدنية وحرية العقيدة، وفولتير رمز عالمي من رموز الحرية والتنوير ويعتبر من أعظم المفكرين الذين دافعوا عن حقوق الإنسان وكرامته، ولعبت كتاباته دور كبير في قيام الثورة الفرنسية ضد القهر والطغيان ودخول فرنسا في عصور التحضر والتقدم، وفي هذا البحث سنتناول فولتير كنموذج للحداثة الفرنسية التي مجدت العقل.

فولتير: إنسان العقل

فولتير (1694 – 1778) فيلسوف فرنسي كتب في مجالات كثيره منها الشعر والمسرح و الرواية والتاريخ، ويُعد من أعظم فلاسفة التنوير، حارب الجهل والطغيان ودافع عن الحقوق المدنية وحرية العقيدة، وفولتير رمز عالمي من رموز الحرية والتنوير ويعتبر من أعظم المفكرين الذين دافعوا عن حقوق الإنسان وكرامته، لعبت كتاباته دور كبير في قيام الثورة الفرنسية ضد القهر والطغيان ودخول فرنسا في عصور التحضر والتقدم، يقول عنه فكتور هيغو: " إذا ذكرنا اسم فولتير فكأننا حددنا مواصفات القرن الثامن عشر كله، وعينّا بكلمة واحدة السمات التاريخية والأدبية المزدوجة لذلك العصر الذي كان، مهما قيل فيه، عصر انتقال للمجتمع كما للشعر"[1]، ونيتشه الذي لا يرضى عن أي شيء وبمطرقته أراد تحطيم كل شيء أهدى كتابه (إنسان مفرط في إنسانيته) الى فولتير قائلا: ""لديّ رغبة قوية في أن أقدم تحية شخصية، في الوقت المناسب، لواحد من أكبر محرري العقل"[2]، ويقول ديورانت: "كان لإيطاليا عصر النهضة، وكان لألمانيا الإصلاح الديني، وكان لفرنسا فولتير".[3]

حدود المعرفة البشرية

يطرح فولتير العديد من الأسئلة ومنها: من أنت؟ من أين تأتي؟ ماذا تصنع؟ إلام تصير؟، ويقول أن هذه الأسئلة يجب أن تطرح على جميع الموجودات وليس على الإنسان فقط، ثم يستدرك ليقول أن لا أحد يستطيع الإجابة عنها، إن الإنسان حيوان ضعيف عند ولادته فلا قوة ولا معرفة ولا غريزة، ثم يتكامل جسمه وتتولد لديه الأفكار وتنمو وبعدها يبدأ جسمه وأفكاره في الاضمحلال، هذه الدورة كيف تتم؟ وما هي القوة المودعة فينا لنفعل كل هذا؟ ويقر فولتير بعجزه عن الإجابة أيضا، ويستمر فولتير بطرح الأسئلة، فكيف نفكر؟ وكيف نهضم؟ وكيف نسير؟ وكيف إذا ما أصابنا الجوع تهرب منّا أفكارنا؟ وتعود حينما نشبع، وهل في الإنسان جوهرين أحدهما يفكر والآخر يهضم؟ غير أن فولتير يرى أنه عندما يعود الى نفسه يجدها واحدة لا ثنائية فيها، لكن أيضا لا إجابات عن هذه الأسئلة، ثم يطرح فولتير سؤاله الأهم هل من اللازم لي أن أعرف؟ وهنا يرى فولتير أن معظم الناس يقبلون بالإجابات التي تقدم لهم عن طريق المؤسسات التعليمية والدينية، وقد لا يهمهم طرح أو الإجابة عن الأسئلة، وصحيح أن الطبيعة حددت الإنسان بما يوافقه وأنه لا يستطيع الوصول الى معرفة كل الأشياء، إلا أن فولتير لم يشبع فضوله في الإجابة عن هذه الأسئلة.[4]

ويستعرض فولتير إجابات بعض الفلاسفة، فينقل عن أرسطو قوله: إن قلة التصديق هي أساس الحكمة، وهي دعوة يرفضها فولتير لأنه يريد أن يعرف، أما ديكارت الذي تصنع الشك حسب تعبير فولتير فهو يتحدث عن يقينيات في عالم الطبيعة وعالم الروح، وإذا كان خطأه كبيرا في عالم الطبيعة المحسوسة فكيف نقبل أن يخدعنا في حديثه عن عالم

الروح؟، حيث يرفض فولتير اعتقاد ديكارت بالأفكار الفطرية ويرد بنوع من السخرية لقد ولد هوميروس والالياذة في رأسه[5]، فالإنسان عند فولتير لا يعرف شيئا عن هذا العالم إلا عن طريق التجربة، وبما أن معارفنا مرتبطة بها فلا يمكن أن نعرف ماهية المادة أو ماهية النفس، ففولتير يرى محدودية العقل الإنساني ومحدودية جسده، فمهما وجد أناس عمالقة في الفكر أو في الجسد فهناك حدود لا يمكن أن يتخطوها[6]، حيث يرى فولتير أن محدودية العقل الإنساني هي جزء من طبيعته، وفي قصة قصيرة له بعنوان ممنون أو الطبيعة البشرية يقول فولتير: "يستحيل على الإنسان أن يصير حكيما كاملا ... كما يستحيل عليه أن يبلغ المهارة الكاملة، والقوة الكاملة، والسلطة الكاملة، والسعادة الكاملة"[7]، لذلك يرفض فولتير قول ديكارت بأن العقل هو أعدل قسمة بين الناس، فالناس يختلفون في كل شيء، فلا القوة الجسدية ولا الذكاء ولا المعرفة ولا المشاعر ولا الأخلاق متساوية، والعقول هي أكثر الملكات اختلافا[8]. وهنا يريد فولتير أن يقول أن على الإنسان معرفة امكانياته الجسدية والعقلية ويعمل وفق هذه الامكانيات وإلا فأن مصيره الفشل والتعاسة.

يرى فولتير أن الفلسفة الميتافيزيقية لا يمكن أن تساعد الإنسان أو تسعده أو تحل مشاكله أو تجيب عن أسئلته، فالإنسان لا يستطيع أن يحقق سعادته ويجيب عن الأسئلة التي يمكن الإجابة عليها إلا عن طريق العمل، فالإنسان ممكن أن يتحمل كل المآسي والويلات، غير أنه لا يتحمل أن يعيش بلا عمل منتظرا نهايته المحتومة، فالعمل يبعد الإنسان عن "ثلاثة شرور: الضجر ونزعة الشر والحاجة"[9]. إن فولتير ومن خلال كانديد يريد أن يقول أن الإنسان الذي يبحث عن اجابات لأسئلته الميتافيزيقية لن يجدها لا عند الفلاسفة الميتافيزيقيين ولا عند رجال الدين، بل يجدها في العمل والفكر العقلاني، فالإنسان قاصر عن فهم الحكمة الإلهية، لذلك عليه أن يسعى لفعل الخير وتجنب الشر فهذا هو عمله لا أن يطرح أسئلة لا إجابات لها.

الإنسان الاجتماعي

يرفض فولتير رأي روسو في إنسان الطبيعة، ويرى أنه إنسان بائس ليس أكثر من طفل قوي البنية وله جميع رذائل الطفولة، كما رفض قول روسو بأن الثمار للجميع والأرض ليست لأحد، فروسو في هذا وحسب فولتير يهدم واحد من أهم حقوق الإنسان ألا وهو حق الملكية[10]، كما يرفض فولتير قول روسو بأن الإنسان المتوحش كان يعيش وحيدا، فالفطرة الإنسانية مجبولة على الاجتماع، فالإنسان وجد في مجتمعات صغيرة وإلا كيف يتزوج؟ وكيف يحمي نفسه وعائلته من الحيوانات ومن البشر الآخرين، والإنسان لم يصل الى ما هو عليه اليوم لو لم يكن في مجتمع يتناقل الخبرات جيل عن جيل[11]، وينقل فولتير في إحدى حكاياته حوارا بين إنسان متمدن وآخر متوحش، فيصف المتمدن للمتوحش الحياة البدائية فيقول: "يقال بأنها الحياة الصحيحة للإنسان، وأن المجتمع لا يعدو أن يكون إفسادا مصطنعا"[12]، فيرد عليه المتوحش بأن هذا الاعتقاد غير صحيح فـــ "نحن [البدائيون] نعيش داخل المجتمع في بلدنا"[13]، وهنا يريد فولتير أن يؤكد أن الإنسان سواء كان بدائيا أو متمدنا فلا يمكن له العيش إلا داخل مجتمع فلا وجود للإنسان المنعزل الذي قال به روسو.

يرى فولتير أن الإنسان هو ابن الماضي والحاضر والمستقبل، وأن الماضي والحاضر هما مجرد وسيلتان لبلوغ المستقبل الذي هو هدف الإنسان، لذلك يعتبر فولتير أن التطلع للمستقبل هو شيء غريزي لدى الإنسان، ومن هنا يرفض قول باسكال بأن الطبيعة حكمت أن تمتع الإنسان بالحاضر فقط، وأن تكفيه رؤية نفسه، فالإنسان الذي لا يسعى الى المستقبل ويتمحور حول ذاته هو إنسان أناني وغبي وغير نافع، وهكذا إنسان حسب فولتير غير موجود إطلاقا، "فالإنسان ولد ليعمل ... ولا فرق بين عدم العمل وعدم الوجود"[14].

يقول فولتير على لسان كانديد وردا على لايبنتز: "إذا كان هذا خير العوالم الممكنة، فما تكون العوالم الأخرى؟"[15]، أن الذي يدعو لهذا السؤال هو المآسي والكوارث الطبيعية والحروب التي جعلت حياة الإنسان لا تطاق، فهو عالم حسب فولتير كل ما فيه يدعو للشك والتشاؤم[16]، وفي حكاية حلم افلاطون يصور فولتير الإنسان وهو يتعرض لأبشع أنواع الشرور من أمراض ومجاعات وحروب وكوارث طبيعية[17]، فهذا العالم إن لم يكن أسوأ العوالم الممكنة فهو بالتأكيد ليس أفضلها.

إن الإنسان هذا المخلوق الذي لا يتجاوز طوله الخمسة أقدام والذي يعيش على الكرة الأرضية والتي بدورها لا تمثل ألا نقطة متناهية الصغر في هذا الكون الشاسع، ممكن أن يقول "أصغوا إليّ، فقد هداني رب العالمين: هناك تسعمئة

مليون نملة صغيرة على شاكلتنا على وجه الأرض، ولكن منملتي وحدها عزيزة على قلب الله الذي يمقت المنملات الأخرى من الأزل الى الأبد، إن منملتي وحدها ستحظى بالسعادة، أما المنملات الأخرى فستكون ملعونة الى أبد الآبدين"[18]، وعندما يسمعه الإمام والكاهن والراهب والبوذي سيقولون له أيُّ أحمق ومجنون يقول هذا؟ والحقيقة هم الحمقى والمجانين لأنهم هم مَن يقول ذلك[19]، وهنا يشير فولتير الى أن كل الأديان تنشر الخرافة والخنوع والعبودية بين اتباعها، وأن كل دين يرى أنه على حق وينظر الى تعاليم وطقوس الآخرين على أنها حمقاء وأن من يمارسها أحمق.

إن فولتير الذي يرى أن للإنسان المفكر معبود واحد هو العقل[20]، ويدعو الى عدم القبول بالخرافات والأفكار المسبقة ويعتبر العقل هو الحكم الوحيد الذي يمكن أن يركن له الإنسان، نجده في مسألة الخلق يتشبث بأقدم النظريات حيث يرى أن أشكال الحياة ثابتة منذ القدم وستبقى على ما هي عليه رافضا الآراء المعاصرة له والتي كانت بمثابة البدايات لنظرية النشوء والارتقاء التي اكتملت في القرن التاسع عشر.[21]

وفي نهاية كتابه عن التسامح يقول فولتير أن رسالة الطبيعة للبشر هي: " لقد جعلتكم تولدون ضعفاء جهلة، كيلا يُقيّض لكم أن تعيشوا إلا لحظات محدودات على هذه الأرض، وكي تسمدوها بجثثكم. فتعاضدوا ما دمتم ضعفاء، واستنيروا ما دمتم جهلة، واحتملوا بعضكم بعضا. وإذا ما اجتمعتم على رأي، وهذا لن يحصل أبدا بكل تأكيد، ولم يعارضكم إلا شخص واحد، فعليكم أن تسامحوه"[22]، حيث يعتقد فولتير أن رسالته في التسامح هي عريضة يرفعها للإنسانية وبذرة يزرعها علّها تخضّر يوما[23]، والتسامح عند فولتير هو جوهر النزعة الإنسانية وهو السبيل الوحيد للقضاء على التعصب والتناحر الذي ينخر جسد أي مجتمع.

ويرى فولتير أن هنالك ثلاثة عوامل تؤثر في الإنسان وتجعله ما عليه وهي: المناخ ونوع الحكم والدين، فهذه العوامل هي التي تشكل الإنسان[24]، فضلا عن التعليم فهو مهم جدا في تشكيل الإنسان، إلا أنه مع ذلك يرفض أن يكون التعليم للجميع ففي رأي غريب له يقول: "أرى أنه من اللازم أن يكون في العالم جهلة ورعاع"[25]، وعندما تحدث فولتير عن الطبقات، وجد أن الطبيعة الإنسانية هي واحدة في كل مكان وزمان، غير أن الناس يختلفون في كفاءاتهم الشخصية، لهذا السبب وجد نظام الطبقات الاجتماعية، وفولتير ليس ضد هذا النظام، بل يعتقد أنه ضروري وهو من مستلزمات الحياة في المجتمع الإنساني، إذن يقر فولتير بوجود طبقة أغنياء وطبقة فقراء، لكن من دون أن يظلم الأغنياء الفقراء ويعاملونهم بالذل والحرمان والعوز، ولابد من وجود عدالة اجتماعية وانصاف بين الناس، فالعدالة الاجتماعية هي نظام اقتصادي واجتماعي يهدف إلى تقليل الفوارق بين الطبقات بغض النظر عن خلفياتهم، ولذا يرى فولتير أنه من المستحيل في عالمنا هذا ألا ينقسم البشر الذين يعيشون في مجتمع الى طبقتين طبقة اغنياء وطبقة فقراء، وبعدها يذهب ليبرر سبب الانقسام بأن الانسان لو وجد في كل مكان من الأرض قوتاً مُؤمناً سهل المنال لاستحال على أي إنسان أن يستعبد الآخر.[26]

إن فولتير وبسخريته المعهودة كان داعيا للحرية والعقلانية، حيث يمكننا القول أن شعار فولتير تحول من "أضحك ودع غيرك يضحك ... [الى] فكر ودع غيرك يفكر"[27]، فحياة الإنسان، حريتها وسعادتها وتعاستها منوطة بالإنسان نفسه وكيفية استخدامه لعقله، لا بالإيمان بالقضاء والقدر الذي يقتل الإنسان الفاعل ويحوله الى متلقي منتظر سلبي.

الأخلاق

حاول فولتير رد الاعتبار للإنسان الحسي والشهواني، وأكد ضرورة توفير حاجاته وملذاته، محتجا على أخلاق الكنيسة التي تسعى الى التقليل من قيمة الجسد على اعتباره أصل الغواية والخطيئة.[28]

إن القانون الإنساني حسب فولتير لا يمكن أن يقوم إلا على القانون الطبيعي، وهو القانون الذي يتفق عليه جميع البشر باختلافاتهم القومية والدينية، وأهم مبدأ في القانون الطبيعي هو "لا تفعل ما لا ترغب في أن يُفعل بك"[29]، غير أن التعصب الديني لا يعترف بهذا المبدأ فالإنسان المتعصب يفعل بالآخرين ما لا يرضى أن يُفعل به، فهو يقتل ويسبي ويُهجر ويبغض الآخر المختلف وينفيه منطلقا في ذلك من نص يعتبره مقدسا.

ويرى فولتير أن الناس وباختلاف لغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وجغرافيتهم ودياناتهم وقوانينهم تجمعهم وحدة أخلاقية حيث يملك الجميع "مفاهيم بدائية فيما يخص العدل والظلم دون أن يعرفوا كلمة من اللاهوت، وهم جميعا اكتسبوا تلك

المفاهيم في السن التي يتفتح فيها العقل"[30]، فالمفاهيم الأخلاقية تصبح أشبه بالبديهيات عند كل إنسان فمثلا مفهوم العدل لا خلاف عليه عند كل البشر وهو مستقل عن أي دين أو قانون، فهي كما يرى فولتير من صنع الخالق، والأمر هنا فيه شيء من التناقض فإذا كانت من صنع الخالق فهذا يعني أنها مبادئ فطرية عند الإنسان وهو ما يرفضه فولتير، وإذا كانت مكتسبة مثلما يقرر فولتير فهي إذن من صنع الإنسان وبالتالي لا يمكن أن تكون مبادئ بديهية وكلية وعامة.

يرى فولتير أن الأنانية من أكثر الأمراض ضررا بالإنسان نفسه وبالآخرين، إذ أن الطبيعة الإنسانية تدعو الى المشاركة وحب الآخر، ويستشهد فولتير بجملة لزرادشت تؤكد على التواصل والحب ليس بين بني البشر فقط وإنما للحيوانات أيضا، يقول فيها: "عندما تأكل أطعم الكلاب ولو أيقنت أنها ستعضك"[31]، وفي حكاية البراهماني الصالح يربط فولتير بين سعادة الإنسان وقدرته العقلية ومدى معارفه، فكلما كان الإنسان أكثر معرفة وأوقد ذهنا كان أكثر تعاسة وشقاء، وكلما كان بسيطا ساذجا كان سعيدا راضيا، إلا أن فولتير يرفض هذا النوع من السعادة، فالشقاء مع العقل والمعرفة أفضل من السعادة مع تبلد الذهن والقبول بالخرافات[32]، فرغم أن السعادة هي المطلب الأول للإنسان إلا أن هذا النوع من السعادة هو أشبه بسعادة الأموات.

خُلق الإنسان ليتسلى كما يرى فولتير لذلك عليه أن يمارس حياته الطبيعية والحصول على كل الملذات التي لا تتعارض مع القيم الأخلاقية، فليس من الصحيح أن يعذب الإنسان نفسه ويمنعها من تحصيل الملذات، فالتقشف عنده بمثابة المرض[33]، وهنا إشارة الى بعض الأديان التي تطلب من معتنقيها طقوس معينة فيها عذاب للجسد وفيها من الزهد والتقشف مما يتجاوز الحدود الإنسانية.

في كتابه (الرسائل الفلسفية) ناقش فولتير مسألة في غاية الأهمية إلا وهي اعتماد العلم بالمعنى الفيزيائي والرياضي ليكون مشروعا إنسانيا لسعادة الإنسان أينما كان، وإقامة المجتمع وفق مبادئ عقلية، صحيح أن الإنسان ممكن أن يتصف بأفسد الصفات مثل: الغش والكذب والإجرام، لكن هذا لا يعني أنه يعيش في غابة خاضعة لقانون القوي يأكل الضعيف، بل أنه وعن طريق قوانين يستنبطها العقل ممكن أن يعيشون في وئام وتحضر[34]، وفي نهاية روايته القدر يرى فولتير أن الإنسان من الممكن أن يعيش بسعادة ورخاء عندما يسود الحب والعدل[35]، حيث يركز فولتير على الحب فيقول: "إنه الحب، الحب، معزّي الجنس البشري، والمحافظ على الكون، وروح كل الكائنات الحساسة".[36]

ويرى فولتير أن التناقضات الموجودة داخل الإنسان من خير وشر، ولذة وألم، وهوى وعقل، هي عناصر ضرورية وطبيعية في الإنسان، وليست من خلق الآلهة كما تدعي الأديان السماوية والوضعية، وهو هنا يريد أن يخلص الإنسان من قلقه الذي يدفعه نحو الدين[37]، ومع ذلك يرى فولتير أنه من الأفضل للإنسان أن يعتقد بالخرافات والأساطير والآلهة المتعددة رغم ما تثيره من سخرية على أن يبقى بلا دين، فهو يرى أنه وبالرغم من غرابة هذه الخرافات إلا أنها أفضل من الإلحاد[38]. وتفضيل فولتير هذا يتأتى من كونه مثل الكثير من معاصريه كانوا يربطون الجانب الاخلاقي بالالتزام الديني حتى وإن أنكره في مواضع أخرى.

ومن الجدير بالذكر هنا أن ديدرو رفض ربط الدين بالأخلاق، فهو يرى أن الأخلاق التجريبية القائمة على مفهوم السعادة هي الممكنة، أما القول بأخلاق قائمة على الدين، أو أن الدين هو أساس الأخلاق، فيرفضه تماما، ففي حوار له مع سيدة فرنسية تؤمن بأن "من ينكر الثالوث الأقدس، رجل محتال، ستقوده قدماه يوما الى المشنقة"، يفند القول بأن الاخلاق والاستقامة مرتبطة بالإيمان، ففي حين ترى هذه السيدة أنه ليس من المنطقي أن يكون الإنسان ملحدا ولا يسرق أو يقتل؛ لأن الإنسان إذا لم يخف من عقاب أخروي فما الذي يمنعه من السرقة والقتل؟ وفي سياق حديثها تعترف السيدة بأنها تقرض الله أو أنها تمارس الربا مع الله، وهنا يرى ديدرو أن الإنسان في مسألة الأخلاق يكون متناقضا، فالمؤمن يتصرف وكأنه ليس مؤمن، والملحد يتصرف وكأنه مؤمن، لذلك يرى أن الدين ليس عاملا اضافيا لفعل الخير مثلما أن الإلحاد ليس عاملا اضافيا لفعل الشر، وعندما تقدم السيدة تعريفا للشر والخير بقولها: "الشر هو ما فيه من سيئات أكثر من الحسنات والخير على العكس، فيه حسنات أكثر من السيئات"[39]، ينطلق ديدرو لتهديم فكرة ربط الخير بالدين والشر بالإلحاد، فهو يرى أن معظم المتدينين يفعلون السيئات ولا يتوقفون عنها إلا في المناسبات الدينية، كما أن أكبر الويلات التي عانت منها البشرية على مدى تاريخها القديم والحديث كانت بسبب الدين، فضلا عن أن الدين هو السبب الرئيسي للكراهية والتشدد

والغاء الآخر باسم الله، فهو يقول: "ليس من مسلم إلا وتخيل أنه يؤدي عملا يرضي الله ورسوله الكريم، إذا ما أباد جميع المسيحيين، الذين ليس من جانبهم أكثر تسامحا على الإطلاق"[40]، ويرى أن الدين هو سبب اكثر الأحقاد رسوخا داخل المجتمع الواحد بل والأسرة الواحدة، ويستشهد هنا بقول المسيح: "أَتَظُنُّونَ أَنِّي جِئتُ لأُحِلَّ السَّلامَ في الأَرْض؟ أَقولُ لكُم: لا، بَلِ الأنقِسام. فيَكونُ بَعدَ اليَومِ خَمسَةٌ في بَيتٍ واحِدٍ مُنقسمين، ثلاثةٌ مِنهُم على اثنَين واثنان على ثلاثة: سيَنقَسِمُ النَّاسُ فيَكونُ الأَبُ على ابنِه والابنُ على أبيه، والأُمُّ على بِنتِها والبِنتُ على أمِّها، والحَماةُ على كَنَّتِها والكَنَّةُ على حَماتِها"[41]، ويرى ديدرو ان مقولة المسيح قد تحققت تماما. إن موقف ديدرو من الدين يمكن تفهمه في سياقه التاريخي، فالكنيسة كانت تتدخل في كل تفاصيل الإنسان وتمارس دور الشرطي عليه، كما أن الدولة العثمانية كانت مثالا سيئا للإسلام والمسلمين.

الحرية

تتمثل الحقوق الطبيعية للإنسان بحق الحرية، حرية الفكر والمعتقد والتصرف، وحق الملكية الخاصة، وأن هذه الحقوق يجب أن تكون مصانة بقوانين واضحة لا لبس فيها، ويميز فولتير بين نوعين من القوانين: قوانين طبيعية وهي عامة ونافعة وأغلبها يتعلق بالجانب الأخلاقي مثل: لا تقتل، لا تسرق، احترم الآخرين، وقوانين سياسية وهذا النوع من القوانين يجب أن يعدل باستمرار ليتلاءم مع حياة الناس وليقترب من القوانين الطبيعية وحينها سيعيش الإنسان حرا وسعيدا.[42]

يرفض فولتير فكرة الإرادة الحرة المطلقة، فلا وجود لإرادة لا تتأثر بالميول والأهواء، فهو يقول "أنا حر حين استطيع أن أفعل ما أريد، ولكنني ملزم بأن أريد ما أريد، أي أنني لا استطيع أن أريد دون سبب. وكل ما عدا ذلك مستحيل"[43]، ففي سؤاله، هل أنا حر؟ يتحدث فولتير عن حرية الإرادة، ويرى أن ليس هنالك شيء دون سبب، فعندما نريد لا بد أن يكون هنالك سبب يدفعنا لما نريد لتحقيق مصالحنا، لكن هذا لا يعني أننا نملك الإرادة الحرة المطلقة، فالكون خاضع لقوانين حتمية والإنسان كما يصفه فولتير بالحيوان الصغير الذي ارتفاعه خمسة أقدام، ليس خارج هذه الحتمية، كما يربط فولتير بين الإرادة الحرة والقدرة، فنحن نريد لكن هل لدينا القدرة على تحقيق كل ما نريد، بالتأكيد لا فهو يقول: "إن الحرية الصحيحة هي حرية الاقتدار، فحين استطيع أن أفعل ما أريد، فتلك حريتي"[44]، ويرى فولتير أننا في كبح رغباتنا ليس أكثر حرية من الاستسلام لها، فنحن تدفعنا آخر فكرة نتبناها لنفعل ما نريد، وهنا يؤكد فولتير أن آخر فكرة نتبناها تتحول الى نوع من الحتمية، لأنه حتما سأفعل ما تمليه عليّ هذه الفكرة، ويعتقد فولتير بالحتمية ويرفض المصادفة تماما، كما أنه يميز بين الحتمية والقسر، فالقسر حتمية مُدركة والحتمية قسر غير مُدرك.[45]

وفي هذا السياق يتحدث فولتير عن كانديد عندما هرب من جيش البلغار وتم الإمساك به وخيّر بين الجلد آلاف المرات او الرمي بالرصاص، فيقول فولتير وبسخريته المعهودة: "أنه يملك الخيار ... فقرر بفضل الهبة التي منحها الله والمسماة (حرية) أن يُضرَب"[46]، غير أن كانديد وبعد أن ضرب أربعة آلاف مرة لم يعد يتحمل أكثر، فاستخدم (حريته) مرة ثانية ليختار الموت[47]، يمقت فولتير الحروب ونتائجها والقوانين التي تبيح للجيوش انتهاك الكرامة الإنسانية، حيث يصف فولتير في كانديد القرى المغولية والبلغارية وهي تتحول بفعل الحرب الى خراب فترتكب المجازر وتغتصب النساء، كل هذا يجري كما يقول فولتير: "حسب قوانين الحق الدولي"[48]، هذه القوانين التي عمل فولتير جاهدا لتغييرها كي تتناسب مع كرامة الإنسان.

وعن نظام الحكم الملائم للناس يرى فولتير ليس المهم نوع النظام فسواء كان ملكي أو ديمقراطي أو ارستقراطي المهم أن يوفر الأمن والطمأنينة والحرية والمساواة بين الناس[49]، ويتحدث فولتير عن البرلمانات الشكلية في أوربا التي تتكون من رجال دين طغاة وبارونات سراق، ومع ذلك عندما يتحدثون للجمهور يبدون وكأنهم اصل النزاهة والمدافعين عن الحرية وجالبي السعادة لشعوبهم[50]، ويرى فولتير أن التنوير هو السبيل لتحقيق نظام حكم يحترم الإنسان، والتنوير الذي يريده فولتير والذي يرى أنه يحرر الإنسان من قيوده يتعلق بالتحرر من هيمنة الكنيسة على الدولة وعلى عقول الناس، والتخلص من الخرافات التي يبثها رجال الدين، والوصول الى إيمان يدعو الى التسامح مع الآخر المختلف، وينشر الفكر العقلاني النقدي[51]، فالهدف الرئيسي لفولتير هو محاربة التعصب والإكراه الديني عن طريق فصل الدين عن الدولة واعادة رجال الدين الى أماكنهم الحقيقة، دور العبادة، فرجال الدين عند تدخلهم في السياسة لوثوا وأفسدوا الدين والسياسة

معا بحيث خسر الناس دينهم ودنياهم، وهدف فولتير لم يتحقق إلا بعد مئة سنة من وفاته وكان من الأسباب الرئيسية لتقدم أوربا[52]، إذن المهم عند فولتير ليس نوع الحكومة بل مصداقيتها مع شعبها ونزاهتها والتزامها بالقوانين التي تكفل الحقوق المدنية والطبيعية وأهمها حق الحرية.

إن من حق أي إنسان أن يسترشد بعقله سواء كان عقله مستنيرا أم ضالا لكن عليه أن لا يخل بالنظام العام للدولة والمجتمع، فالإنسان المؤمن أو غير المؤمن هو حر في اعتقاده أو عدمه لكن عليه أن لا يفرض عقيدته على الآخرين[53]، وينطلق هنا فولتير من محاولات إجبار الإنسان على أن يكون عبدا مطيعا لدين معين أو بالأحرى لرجل دين معين، ويستشهد فولتير بقول لأحد الكهنة: "يجوز قتل أي عاهل أنزل البابا بحقه الحرم الكنسي، وفي أي بلد وجد هذا العاهل، لأن الكون بأسره ملك للبابا"[54]. وهنا نلاحظ كيف يعطى البابا الحق في أن يتصرف ليس في حياة الناس البسطاء فقط وإنما في حياة الملوك والرؤساء، وكيف تعطى صلاحية الله لرجل الدين فيصبح هو الذي يحيي ويميت بقرارات كنسية ما أنزل الله بها من سلطان.

إن الإنسان ينبغي أن يكون حرا في اعتناق دينه او عقيدته، فالإكراه لا يولد إلا منافقين، وفي هذا السياق يورد فولتير الأقوال التي تمثل شهادات ضد التعصب، ومنها: "أنه لمن قلة الدين أن نحرم البشر من الحرية في موضوع الدين، وأن نحول دون اختيارهم لإلههم: فما من إنسان، ما من إله، يرغب في عبادة قسرية"[55]، و "لا شيء ينافي الدين كالإكراه"[56]، و "أنضطهد من سامحهم الله"[57]، و "مَثل الدين كمثل الحب: فهو لا يفرض فرضا ولا مدخل للإكراه إليه، ولا شيء أكثر استقلالية من الحب والإيمان".[58]

ومن جانب آخر يرى فولتير أن للتجارة دور كبير في الانتعاش الاقتصادي، غير أن أهميتها الكبرى كانت في جعل الناس أحرار، لأنه بلا حرية لا توجد تجارة .[59]

التسامح

إن أشد الأمراض فتكا بالإنسان هو التعصب عموما والتعصب الديني على وجه الخصوص، فالتعصب الديني ينشره خطباء الدين وهم يخاطبون الجهلة من الناس فيوهموهم أن الله يراهم ويريد منهم أن يجاهدوا في سبيلة، فيتحولون الى وحوش فاقدة العقل والضمير فيقتلون كل من يخالفهم وهم متيقنون من أنهم بعملهم هذا سوف يدخلون الجنة، والتعصب الديني كما يرى فولتير يصعب القضاء عليه عن طريق الدين نفسه أو عن طريق القانون، فالحل الأمثل للتخلص منه هو نشر الفكر الفلسفي العقلاني بين الناس.[60]

إن التعصب الديني ينحدر بالإنسان الى أسفل درك ويحوله الى كائن آخر، كائن لا يمكن وصفه ولا مقارنته بأي نوع من أنواع الوحوش الضارية، فالتعصب الديني يدفع الأب الى قتل ولده والولد الى قتل أبيه والأم الى قتل ولدها والولد الى قتل أمه والأخ الى قتل أخيه، إنه يحول الإنسان الى مسخ ليس له مثيل، فتتحول عمليات الابادة والقتل الجماعي الى أعياد عند القتلة، ويضرب فولتير مثالا على ذلك بمدينة تولوز حيث يحتفل سنويا "بذكرى مجزرة اقترفها سكانها قبل قرنين من الزمن [زمن فولتير] وذهب ضحيتها اربعة آلاف مواطن هرطوقي. وبالرغم من صدور ستة قرارات عن مجلس المدينة بحضر هذا العيد البشع، فأن أهلها لا يزالون يحتفلون به، على غرار مهرجانات الزهور"[61]، إن بشاعة التعصب الديني لا يمكن تصورها فهي أشبه بتسونامي لا يقف أمامه شيء، حيث يغيب العقل وتموت المشاعر وتعطل القوانين، وينظر المتعصب الى الآخر المختلف عنه في المعتقد على أنه وسيلة لبلوغ غايته حيث قتله هو الطريق الى الجنة ومرضاة الله، فالمتعصب يقتل بضمير مرتاح، وبأوامر يعتبرها إلهية، فيتحول الدين عنده من حب وتعاون الى بغض واحتراب وإقصاء، إن فعل الإنسان المتعصب دينيا لتأنف منه كل الكائنات .

ويرى فولتير أن الرومان ومنذ عصر رومولوس[*]، حتى دخول المسيحية الى الامبراطورية لم يعرفوا التعصب أبدا، فقد كانوا يجاهرون بأفكارهم بكل حرية، فقد شك شيشرون في كل شيء، ونفى لوفراسيوس كل شيء، وأنكر بلينوس وجود الله، ولم يتعرض لهم أحد فقد كان المبدأ الأساسي عند الشعب والحكومة الرومانية هو "وحدها الآلهة معنية بالإهانات الموجهة الى الآلهة"[62]، فالرومان لم تكن تهمهم الديانات ولا الأفكار فكل ما كان يريده القياصرة هو غزو العالم عسكريا ولم يجبروا شعبا ما على ترك ديانته ولم يبشروا بديانة معينة[63]. ونلاحظ هنا أن فولتير يركز على

التعصب الديني ويعتبره البلاء الوحيد متناسيا التعصب القومي والثقافي والاثني الذي مارسه الاغريق والرومان تجاه الآخرين لدرجة أنهم اعتبروهم مجرد عبيد، وأحتل الرومان مساحات شاسعة من العالم ونكلوا وقتلوا شعوبا كثيرة .

ويرفض فولتير ما ينقله التاريخ من أن المسيحيين الأوائل قد تعرضوا للاضطهاد من قبل الرومان، فهو يرى العكس بحيث أن التعصب والاضطهاد لم يظهرا إلا مع دخول المسيحية، فقد مارس المسيحيون وقبلهم اليهود التعصب الديني واضطهاد من يخالفهم الرأي[64]. إن فولتير وهو يتحدث عن التسامح الاغريقي والروماني يريد القول بأن المجتمع الغربي عموما كان مجتمعا متسامحا وأنه حتى الحروب التي جرت بين قبائله كانت تلحق أضرارا بسيطة بالمقارنة مع الأضرار التي تعرض لها جراء دخول الأديان القادمة من آسيا خاصة المسيحية اليه[65]، وفي هذا المنطق الفولتيري ليس بخافيا التعصب القومي، فهو يريد تبرأة الغرب من كل أنواع التعصب وإلصاقه بالشعوب والأديان الآسيوية.

يربط فولتير بين العقل والتسامح والنزعة الإنسانية والعقلية الفلسفية وبين التنوير، فالتنويري هو الذي لا تحده طائفته أو قوميته ولا حدوده الجغرافية، فهو يبحث عن الحقيقة مهما كان مصدرها، فالفكر البشري واحد وليس هنالك أفكار محلية وأخرى مستوردة كما يردد الأصوليون، لذلك دعا فولتير الى تعلم التسامح الديني ومناهج البحث العلمي والإبداع في المجال الأدبي من الانكليز، رغم كونهم الأعداء التاريخيين للفرنسيين، حيث سبق الانكليز الفرنسيين في هذا المجال، فعندما كان الوعاظ الانكليز مثلا يدعون الناس لأخذ اللقاحات لإنقاذ حياتهم، كان الوعاظ الفرنسيين يحرمونها بدعوى أن الأرواح بيد الله ولا يجوز التدخل في إرادته.[66]

إن فولتير وفي كتابه (رسالة في التسامح) لم يطلب المساواة الكاملة للبروتستانت كونه محكوم بظروف اجتماعية تاريخية لا يمكنه تجاوزها، إلا إنه فتح الباب على مصراعيه ليأتي اليوم الذي يعلن فيه أحد زعماء الثورة الفرنسية (البروتستانتي رابو دو سانت ايتيين) أمام الجمعية الوطنية "أيها السادة. أننا لا نطالبكم بالتسامح معنا، ولكن بالحرية"[67]. إن تحقيق التسامح الكوني حسب فولتير ليس سهلا لكنه ليس مستحيلا، فالإنسان متى ما عرف أن الآخر هو إنسان مثله له كامل الحقوق وعليه كامل الواجبات، حينها سوف ينظر الى الآخر بوصفه إنسان مختلف وله حق الاختلاف لا بوصفه عدوا يجب قتله.[68]

الدين

إن الدين حسب فولتير هو أحد أهم اسباب الخلافات بين الناس، فلا يوجد مجتمع يعتنق دينا أو مذهبا واحدا، وإن وجد فسوف يختلفون في التفسير وفي التأويل، لذلك فالتعددية وقبول الآخر المختلف هي الحل، كما دعا فولتير الى دين بلا طقوس أو عقائد أو معجزات، دين يدعو الى الخير وينبذ الشر، دين إنساني عقلاني أخلاقي[69]، فالأديان عموما لا تتعامل مع الإنسان بما هو إنسان وإنما بوصفه مؤمنا ينتمي لهذا الدين أو ذاك، فإن لم يؤمن به فهو خارج حتى الرحمة الإنسانية ويصبح قتله واجب وكأنه كما يقول فولتير ليس: "إنسان برجلين، ومن دون ريش، ويتمتع بروح"[70]، فأنت إن كنت في مدينة يعتقد أهلها أن البابا هو المسيح الدجال فعليك أن تقر بأن البابا هو المسيح الدجال، واذا كنت في مدينة يعتقد أهلها أن البابا هو ظل الله في الأرض فعليك أن تقر بذلك، وإلا فالطرد من هذه المدينة أو تلك هو أهون العقوبات التي يمكن أن تنالها، لذلك يقول فولتير: "كل شيء في هذا العالم يضطهدني حتى الكائنات التي لا توجد"[71]، فالإنسان عندما لا يقبل بالخرافات التي يروجها رجال الدين حين يتحدثون عن اشياء لا وجود لها ويريدون منه أن يصدقها يتعرض الى أقسى أنواع العقوبات والتي قد تصل الى حد القتل.

إذن موقف فولتير الرافض للدين ينطلق من موقف الدين من الإنسان فهو يرى أن كل الأديان تسلب حق الإنسان في الحرية والمساواة وتسلب حقه في التفكير، فعندما يسأل كانديد الدرويش التركي عن كمية الشر الموجودة في العالم والذي طال كل شيء وخاصة الإنسان، يجيبه الدرويش" عندما يرسل عظمة السلطان سفينة الى مصر، هل يهتم اذا ما كانت الفئران الموجودة على السفينة مرتاحة أم لا"[72]، إنه جواب يسفه الإنسان ويدعوه الى قبول الأشياء بالرضى والسكوت، وهو ما يرفضه فولتير فهو يريد معرفة الأسباب لمعرفة النتائج المتعلقة بها والتحكم بها لمصلحة وسعادة الإنسان.

كذلك في الديانة الهندوسية حيث ممكن أن يحرق الإنسان إذا ما تطاول على مقدسات المجتمع، حيث حكم على هنديين بالحرق "الأول لأنه قال أن إكزاكا ليس هو ذات براهما، والثاني لأنه بات يرجح أن بإمكان المرء أن ينال بالفضيلة رضوان الكائن الأسمى، دون أن يمسك عند موته ذيل بقرة"[73]، فالأديان تؤمن فقط بخلاص وحقوق متبعيها وتهمش الاخر وتخرجه من رحمة الله فالجانسينيون وهم أنصار اللاهوتي الهولندي كورلينيوس جانسينيوس (1585-1638) يرون أن الخلاص مكتوب لفئة محددة من الناس ومنذ الولادة، ولا يشمل سائر البشر[74]، وهكذا نلاحظ ان الخروج على (المقدس) في كل دين يعتبر خروج عن الدين الصحيح وهرطقة وكفر وإلحاد ولابد أن تكون عقوبته الإقصاء والتهميش أو الموت.

وفي رسالة من أحد رجال الدين الى أحد الآباء اليسوعيين يقترح فيها عليه القضاء على جميع البروتستانتيين والذي يقدر رجل الدين هذا عددهم بين خمسمئة ألف ومليون ونصف، فيطالب بإعدام كل القساوسة البروتستانتيين وقتل الآباء والامهات وهم نيام وتزويج فتياتهم من كاثوليك صالحين وإخصاء جميع الفتيان الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة وإجبار الأطفال على اعتناق الكاثوليكية حتى لو كان هذا لا يتم إلا عن طريق السياط، ويستمر رجل الدين هذا في اقتراحاته الشاذة للقضاء على باقي أعداء الكنيسة الكاثوليكية بشتى الطرق الدنيئة واللاإنسانية[75]. إن رجل الدين هذا مثال صارخ على التعصب الديني الذي يؤدي الى قتل الملايين بدم بارد وضمير مرتاح، وهذا ما نجده في كل الأديان، فاليهود قتلوا ما لا يحصى من سكان المناطق التي ادعوا أن الله خصهم بها باعتبارهم شعبه المختار، كما نجد اليوم من المسلمين مَن يدعوا الى قتل الملايين ليس فقط من أصحاب الأديان الأخرى وإنما من نفس دينهم من الطوائف الأخرى، بل وحتى من طائفتهم، فهم يكفرون الجميع ويجندون الكبار والصغار ليجعلوا منهم قنابل تنفجر لتقتل كل من خالفهم، ويدعون ربهم في صلاتهم ليقطع النسل عن مخالفيهم ويصيبهم بالأمراض والجوع وغيرها من الأمور التي لا يمكن تصدر عن إنسان سوي، إن من يدعو الى هكذا أفعال بالتأكيد ليس له صلة بالإنسانية ولا الحيوانية، فهو خروج عن أبسط قواعد الدين ومنظومته الأخلاقية، وهو خروج حتى عن قانون الغابة، فصراعهم مع الآخرين ليس من أجل البقاء، وإنما من أجل صورة مشوهة عن الله صنعها سدنتهم.

يقول فولتير: "كانت ثلاثة طوائف، أو أربعة طوائف، تمزق بريطانيا العظمى بالحروب الأهلية، وذلك باسم الرب"[76]، ويؤكد فولتير أن كل الأديان حتى غير السماوية تنظر للإنسان من هذه الزاوية، زاوية معي أو ضدي، ففي روايته القدر يُحكم على بطلها بالموت حرقا لأنه قال "أن نجوم السماء لا تغرب في البحر"[77]، فمخالفته لمعتقدهم عقوبتها الموت.

إن محاولة المتعصبين إجبار الآخرين على اعتناق عقائدهم هو نوع من الحمق والغباء، فلا يمكن لأي أحد على الإطلاق أن يكون "قادر على حمل البشر قاطبة على التفكير بطريقة واحدة في شؤون الميتافيزيقا، فتطويع الكون برمته بقوة السلاح أسهل بما لا يقاس من تطويع العقول في مدينة واحدة"[78]. إن المسائل الميتافيزيقية هي موضع خلاف واختلاف مذ وجد الإنسان على الأرض ولا زالت حتى يومنا هذا وستبقى ما بقي الإنسان، فليس هناك اتفاق حول مسألة الله أو النفس أو الخلود أو الإرادة بين الأديان ولا حتى بين الطوائف داخل الدين الواحد، وهي مختلفة المعنى من إنسان الى آخر، بل هي تختلف عند الإنسان نفسه من وقت لآخر بسبب العمر والمعرفة والبيئة.

ويرى فولتير أن غاية الدين الرئيسية هو أن يجعل الإنسان سعيدا في الدنيا وفي الآخرة، وسعادة الآخرة ينالها الإنسان بالعمل الصالح، أما سعادة الدنيا فينالها بكونه إنسانا متسامحا ومبتعدا عن التعصب[79]، فالله عادل والإنسان يحب العدل، فمن غير المناسب أن نبشر بإله يحمل الصفات التي ذكرت في الكتب الدينية المقدسة عند أصحاب الديانات بحيث جعلوه أشبه بالطاغية البربري حسب تعبير فولتير، فهو يرى أن هذه الديانات هي نتيجة تواطؤ بين طغاة برابرة وكهنة برابرة، كان الهدف منها إخضاع الناس واستعبادهم، لذلك يرى فولتير أن الحل الأمثل لمشكلة الدين ورجاله في أن يكونوا خاضعين لقوانين الدولة[80]، بسبب كل هذا كان موقف فولتير الرافض للأديان وتعاليمها فهو يقول: "أشد الكهنة حمقا، وأشدهم من أجل ذلك تعصبا"[81]، ويقول بسخرية معبرة: "إذا جمعت جميع كتب الفلاسفة في الأزمنة الحديثة لم نجدها قد

أحدثت من الضوضاء في العالم ما أحدثه جدل الكردلية، فيما مضى حول شكل كُمّهم وغطاء رأسهم"[82]، ويقول أيضا: "صديق واحد خير من مئة قسيس"[83]، وبسخرية لاذعة يتحدث فولتير عن الكهنة والقديسين ورجال الدين في كل مكان فيقول: "يا للخير العميم للدولة بأمثال هؤلاء"[84]، إن هؤلاء وبأعدادهم الكبيرة لا عمل لهم سوى الأكل والشرب ونشر الخرافة.

وفي رسالة الى ملك بروسيا يحرضه فيها فولتير على الدين المسيحي يقول فيها: "ديننا هو بالتأكيد الأكثر سخافة، والأكثر دموية التي أصابت هذا العالم، جلالتك ستقدم للجنس البشري خدمة أبدية بإخراج هذه الخرافة الشائنة، لا أقول بين الرعاع، الذين لا يستحقون التنوير والذين هم مناسبون لكل نير، أقول بين الناس الشرفاء، بين الرجال الذين يفكرون، بين أولئك الذين يرغبون في التفكير"[85]، وتشير رسالة فولتير هذه الى نقطتين في غاية الأهمية: الاولى هي يأس فولتير من عامة الناس ورغبتهم في التغيير، وهو في هذه النقطة محبط لما يراه من عامة الناس بسبب قبولهم الخرافة ودفاعهم عنها الى درجة قتل الآخر المختلف، والثانية هي ان المسيحية كانت في زمن فولتير تشبه السلفية الإسلامية اليوم فهي أداة قتل وإقصاء، ونستنتج ومن هاتين النقطتين العمل الجبار الذي قام به الأوربيون فلاسفة ورجال دين إصلاحيون من الارتقاء بالوعي عند الإنسان الغربي وفي تجديد للمسيحية وجعلها تلاءم الحياة المعاصرة.

وفولتير مثل روسو هاجم الأديان واعتبرها سببا في تعاسة الإنسان، إلا أنه لم يكن ملحدا فكان يؤمن بوجود الله وقد قدم أدلة على وجوده، وإذا كان روسو تحدث عن دين الفطرة فأن فولتير تحدث عن الدين الطبيعي، ومع ذلك لم يلصق الإلحاد بفيلسوف مثلما ألصق بفولتير، وعلى حد تعبير أحد الباحثين "ففولتير إذن ليس ملحدا إلا أنه كافر زنديق"[86]. وهو لا يؤمن بالأديان السماوية ولا بالرسل، إلا أنه يؤمن بوجود خالق، وفي هذا السياق وعندما يتحدث عن المسيح ينقل ما قاله أحد الأحبار اليهود له، هل أنت المسيح ابن الله؟ ويرى فولتير ليس المقصود بهذا القول هو إثبات النسب لله وإنما كان شائعا قول ابن الله كصفة للإنسان الصادق مثلما يقال ابن بليعال للإنسان الشرير[87]، ويقول فولتير: "إذا سُئلت: من بين جميع الأنظمة الإلهية التي اخترعها الإنسان، أيها سأعتنق؟ أجبت: لن أعتنق أيا منها، بل سأعبد الله"[88]، ففولتير يؤمن بوجود خالق للكون إلا انه لا يؤمن بالإله الذي تصوره الديانات السماوية، ويؤكد على وجود هذا الخالق بشكل لا يقبل الشك فهو يقول: "نحن قطعا من صنع الله" [89]، فهو يرى أن كل ما في الإنسان من إبداع لا بد وأن يكون وراءه عقل رتبه وهذا العقل هو الله، كما يؤكد على "إن في الرأي القائل بوجود الله صعوبات، إلا أن في الرأي المعاكس إحالات"[90]. ويبحث فولتير عن دين يخدم الإنسان حيث يقول: "نعم، أننا نريد دينا، إلا أننا نريده بسيطا، حكيما، جليلا، أليق بالله وأقرب الينا، بكلمة مختصرة، نريد أن نخدم الله والبشر".[91]

ويمكن تلخيص موقف فولتير من الدين بتشبيهه للدين بالشجرة التي أصلها طيب، لكن ثمارها مرّة المذاق، بل لا يستطيع أحد أن يتحمل مرارتها.[92]

إن موقف فلاسفة الموسوعة تجاه الدين بحسب الكثير من الباحثين فيه نوع من التملق، إلا أن الفلاسفة الذين كانوا خارج نطاق الموسوعة، كانوا واضحين وصريحين في موقفهم من الدين، فقد اعتبروه أداة قمع واستبداد بيد دولة قمعية واستبدادية، فقد جاهر هولباخ ولامتري وهلفتيوس بأنهم ماديون ملحدون، والحقيقة أن تملق ديدرو للدين اكبر وأوضح من تملق فولتير، ففولتير وإن كان موقفه من الدين متأرجحا إلا أنه صرح بأن الإنسان العاقل والمحترم عليه أن ينظر الى الدين وخاصة الدين المسيحي باشمئزاز، وهنا فواتير يقصد بالعاقل والمحترم الطبقة المثقفة وليس عوام الناس، فهم حسب رأيه جهلة وأغبياء وليس لهم أي دور في دفع الإنسان الى التقدم، في حين كان موقف ديدرو في هذا المجال هو أن يأخذ بيد العامة من الناس ليحررهم من قيود الدين على العكس من فولتير والذي ربما ينطلق من موقف متشائم، يرى أن هؤلاء العامة ليس لديهم اي منظومة أخلاقية سوى الدين، لذلك فهو يريد أن يؤمن محاميه وخياطيه وخدمه، بل وحتى زوجته بالله؛ لأنه يرى أن هذا السبيل الوحيد لعدم تعرضه للغش وتدنيس عرضه، ففي قصيدة له يقول: "إذا كان الله غير موجود، فسيكون من الضروري أن نختلق نحن واحداً"[93]، فهو يرى ضرورة اقناع العامة بوجود خالق؛ لأنه الرادع الوحيد لهم وبدونه سيتحولون الى قطاع طرق ولصوص[94]. وقد يبدو هذا الكلام غير مقبول من فولتير وهو كذلك، لكن علينا الاخذ

بنظر الاعتبار الظروف الاجتماعية والتاريخية والسياسية التي كان يعيش فيها فولتير، وقد يكون هذا العذر غير كافٍ لفولتير لأنه وكما بينّا أن هنالك الكثير من الفلاسفة في زمنه قالوا وبكل جرأة وصراحة رأيهم.

كانت حياه فولتير مليئة بالتناقضات، إذ كان يزدري الإنسان، لكنه في الوقت نفسه شديد الاهتمام بالجنس البشري، وكان عدُوا للتعصب لكن مع هذا تعصب في عدائه لليهود، وانتقد رجال الكنيسة واظهر لهم عداءً شديدا، لكنه أهدى أحد كتبه الى البابا، وتهكم على باطل الثروة وعدم غنائها، في الوقت الذي كان يجمع الثروة بأساليب غير شريفة. (95)

لقد حدثت قطيعة ابستمولوجية في الوقت الذي ظهرت فيه مؤلفات الموسوعيين فولتير وروسو وديدرو، عندئذ حصل الانقلاب الحقيقي وانتقل المجتمع الأوروبي من عقلية القرون الوسطى الكهنوتية الإقطاعية، إلى عقلية العصور الحديثة العلمانية الديمقراطية، وكان فولتير الرأس المدبّر لحزب الفلاسفة أو لحزب التنوير، فقد كان فولتير يعتقد أن التنوير سوف يشمل كل الظواهر، وكل القضايا، وكل العقول وعندئذ تخرج البشرية من المرحلة الطائفية الهمجية، لكي تدخل في المرحلة الحضارية العقلانية.

Abstract

The French Enlightenment: Rational Man Voltaire is a model

By Ahmed Juaib Kazem And Hussein Abdel-Zahra Sheikh

The French philosophy has focused on the mental aspect of man and gave it supreme value. Voltaire is the undisputed French philosopher of enlightenment. Voltaire sees that man knows nothing about this world except through experience, and that man will not find answers to his metaphysical questions in the metaphysical philosophers But he finds it in the work and rational thought, and on the social side Voltaire sees that human instinct is bound to meet; therefore reject the view of Rousseau in the human nature, Voltaire tried to restore the mind of the sensual and sensual person, and stressed the need to provide needs and pleasures, The Church, which seeks to diminish the value of the body as the source of seduction and sin, man was created to entertainment according to Voltaire. The right to freedom, freedom of thought, belief and behavior, and the right to private property, and these rights must be protected by clear and unambiguous laws. Voltaire focused on the issue of religious tolerance and saw that tolerance did not come from religion or through the imposition of laws, But the best solution to get rid of it is to spread rational philosophical thought among the people, to reach the conviction that not all people can agree on a single religion or doctrine so they have to acknowledge the difference, and Voltaire attacked the religions as a cause of human misery, but he was not an atheist he believed Although he spoke of the religion of instinct, Voltaire spoke of natural religion. Yet atheism did not stick to a philosopher as he did with Voltaire. Voltaire, Didero, Rousseau and other French Enlightenment philosophers played a prominent and influential role in the French Revolution.

الهوامش:

([1]) جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، الطليعة، بيروت، ط3، 2006، ص 475.

([2]) فريدريك نيتشه: إنسان مفرط في إنسانيته، ج1، ترجمة: محمد الناجي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002. الإهداء

([3]) Will Durant: The Story of Civilization, Age of Voltaire, Simon & Schuster, V 91965, p 753

([4]) اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، ترجمة: صباح محي الدين، عويدات، بيروت – باريس، ط2، 1984، ص 93 – 96.

([5]) المصدر نفسه، ص 97.

([6]) المصدر نفسه، ص 100 – 101.

([7]) فولتير: ميكروميغاس وثلاث قصص، ترجمة: إلياس ابو شبكة، هنداوي، القاهرة، 2014، ص 24.

([8]) اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، ص 88.

([9]) فولتير: كانديد أو التفاؤل، ترجمة: آنا ماريا شقير، الهلال – البحار، بيروت، ط1، 2005، ص 298.

([10]) اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، ص 58.

([11]) المصدر نفسه، ص 82.

([12]) فولتير: قصص وحكايات، ترجمة: سلمان حرفوش، المدى، دمشق – بيروت – بغداد، 2006، ص 97.

([13]) المصدر نفسه، ص 97.

([14]) فولتير: رسائل فلسفية، ترجمة: عادل زعيتر، التنوير، بيروت، ط1، 2014، ص 189.

([15]) فولتير: كانديد أو التفاؤل، مصدر سابق، ص 70.

([16]) نازلي اسماعيل: الشعب والتاريخ هيغل، المعارف، القاهرة، 1976، ص 91.

([17]) فولتير: قصص وحكايات، مصدر سابق، ص 52.

([18]) فولتير: رسالة في التسامح، ترجمة: هنرييت عبود، بترا، دمشق، ط1، 2009، ص 163.

([19]) المصدر نفسه، ص 163.

([20]) اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، ص 44.

([21]) المصدر نفسه، ص 76.

([22]) فولتير: رسالة في التسامح، مصدر سابق، ص 180.

([23]) المصدر نفسه، ص 179.

([24]) اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، ص 84.

([25]) المصدر نفسه، ص 88.

([26]) عبد العزيز عزت: فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع، المعارف، القاهرة، 1951، ص114 – 115. ينظر ايضا ف.فولغين: فلسفة الانوار، ترجمة: هنرييت عبودي، الطليعة، بيروت، ط1، 1981 ، ص 32.

([27]) هنري توماس ودانالي توماس: المفكرون من سقراط الى سارتر، ترجمة: عثمان نويه، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1970، ص 253.

([1]) ف.فولغين: فلسفة الانوار، مصدر سابق، ص27.

([29]) فولتير: رسالة في التسامح، مصدر سابق، ص 47.

([30]) اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، ص 117.

([31]) فولتير: ميكروميغاس وثلاث قصص، مصدر سابق، ص 27.

([32]) فولتير: قصص وحكايات، مصدر سابق، ص 8.

([33]) اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، ص 65.

([34]) هاشم صالح: مدخل الى التنوير الأوربي، الطليعة، بيروت، ط2، 2007، ص 232.

([35]) فولتير: القدر، مصدر سابق، ص 133.

([36]) فولتير: كانديد أو التفاؤل، مصدر سابق، ص 52.

([37]) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، المعارف، القاهرة، ط5، 1986، ص 189.

([38]) فولتير: رسالة في التسامح، مصدر سابق، ص 153.

([39]) ديدرو: رسالة حول العميان وحديث فيلسوف مع ماريشالة، ترجمة: عبود كاسوحة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2007، ص 135.

([40]) المصدر نفسه، ص 136.

([41]) لوقا: 12: 51 – 53.

([42]) اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، ص 84.

([43]) فولتير: الفيلسوف الجاهل ضمن اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، ص 80.

([44]) المصدر نفسه، ص 106.

([45]) المصدر نفسه، 104 – 108.

([46]) فولتير: كانديد أو التفاؤل، مصدر سابق، ص 42.

([47]) المصدر نفسه، ص 42.

([48]) المصدر نفسه، ص 44.

([49]) اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، ص 88.

([50]) فولتير: رسائل فلسفية، مصدر سابق، ص 71.

([51]) هاشم صالح: معارك التنويريين والأصوليين في أوروبا، الساقي، بيروت، ط1، 2010، ص 52.

([52]) المصدر نفسه، ص 150 – 152.

([53]) المصدر نفسه، ص 85.

([54]) المصدر نفسه، ص 86.

([55]) لمصدر نفسه، ص 131.

([56]) لمصدر نفسه، ص 131.

([57]) لمصدر نفسه، ص 132.

([58]) لمصدر نفسه، ص 133.

([59]) فولتير: رسائل فلسفية، مصدر سابق، ص 77.

([60]) فولتير: المعجم الفلسفي، ضمن اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، 124.

([61]) فولتير: رسالة في التسامح، مصدر سابق، ص 11.

([*]) رومولوس: المؤسس الاسطوري لمدينة روما (753 ق.م) وملكها الأول، وقد عبده الرومان باعتباره إلها يحمي مدينتهم. المصدر نفسه، ص 53. من هامش المترجم

([62]) المصدر نفسه، ص 54.

([63]) المصدر نفسه، ص 54.

([64]) المصدر نفسه، ص 55 – 56.

([65]) المصدر نفسه، ص 161.

([66]) هاشم صالح: معارك التنويريين والأصوليين في أوروبا، مصدر سابق، ص 93.

([67]) المصدر نفسه، ص 172.

([68]) فولتير: رسالة في التسامح، مصدر سابق، ص 167.

([69]) هاشم صالح: معارك التنويريين والأصوليين في أوروبا، مصدر سابق، ص 158.

([70]) فولتير: كانديد أو التفاؤل، مصدر سابق، ص 48.

([71]) فولتير: القدر، مصدر سابق، ص 29.

([72]) فولتير: كانديد أو التفاؤل، مصدر سابق، ص 296.

([73]) فولتير: قصص وحكايات، مصدر سابق، 34.

([74]) فولتير: رسالة في التسامح، مصدر سابق، ص 41 – 42.

([75]) المصدر نفسه، ص 139 – 141.

([76]) فولتير: رسائل فلسفية، مصدر سابق، ص 43.

([77]) فولتير: القدر، مصدر سابق، ص 77.

([78]) فولتير: رسائل فلسفية، مصدر سابق، ص 159.

([79]) فولتير: رسائل فلسفية، مصدر سابق، ص 159.

([80]) اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، ص 122.

([81]) فولتير: القدر، مصدر سابق، ص 29.

([82]) فولتير: رسائل فلسفية، مصدر سابق، ص 100.

([83]) فولتير: القدر، مصدر سابق، ص 29.

([84]) فولتير: قصص وحكايات، مصدر سابق، ص 61.

([85]) Chris Mathews: Modern Satanism: Anatomy of a Radical Subculture, Greenwood Publishing Group, 2009,p 16 .

([86]) اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، ص 91.

([87]) فولتير: رسالة في التسامح، مصدر سابق، ص 128.

([88]) فولتير: المعجم الفلسفي، ضمن اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، 117.

([89]) المصدر نفسه، ص 112.

([90]) اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، ص 56.

([91]) فولتير: المعجم الفلسفي، ضمن اندريه كريسون: فولتير (حياته – آثاره – فلسفته)، مصدر سابق، 121.

([92]) Claude Ganiere: Le Bouquin des citations, Robert Laffont, Paris, 1997, p 468.

([93]) https://ar.wikipedia.org.

([94]) غيرترود هيملفارب: الطرق الى الحداثة، ترجمة: محمود سيد احمد، عالم المعرفة، الكويت، 2009، ص 163.

([95]) مصطفى الخشاب: تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية، لجنة البيان العربي، القاهرة، ط1، 1953، ص 431.